صورة أستاذ الفلسفة بين السينما الفرنسية والمصرية: فيلما "ليس نوعه" و"البيضة والحجر" أنموذجا

The image of the professor of philosophy between French and Egyptian cinema The films "Not His type" and "The Egg and the Stone" are examples

ياسين سليماني[1]*، أ.د لخضر منصوري[2]

[1] جامعة وهران1 أحمد بن بلة،الجزائر، slimani.yassine@edu.univ-oran1.dz

[2] جامعة وهران1 أحمد بن بلة، الجزائر، theatredupoint@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: ../../.... تاريخ القبول: ../../.... تاريخ النشر: ../../....

ملخص:

تناقش هذه المقالة الصورة التي ظهر بها تخصص الفلسفة وأساتذتها في السينما وطرق معالجة الأفلام لهذا التخصص والمشتغلين به خاصة بالنظر إلى أنّ الفلسفة تخصص في غاية التعقيد، وواحد من أكثر التخصصات نخبوية بينما السينما كانت ولا تزال فنا جماهيريا بامتياز، واختارت المقالة فيلمين بطلهما أستاذ فلسفة، الأول هو فيلم فرنسي بعنوان "ليس نوعه" *pas son genre* (2014) للمخرج لوكاس بالفو *Lucas Belvaux* والآخر هو الفيلم المصري "البيضة والحجر" (1990) للمخرج علي عبد الخالق، حيث اختارت المقالة المنهج التحليلي النقدي والمنهج المقارن وتوصلت إلى مجموعة من النتائج من أهمها أنّ أستاذ الفلسفة لا يمكن أن يعيش بأفكاره الطوباوية والنخبوية دون أن يتعرض هو وحياته للكثير من المشكلات لغرابة أفكاره عن المجتمع (سواء كان غربيا أو عربيا) وأنّ الفلسفة رغم قيمتها الكبيرة عند المجتمع الغربي فإنها لا يمكن أن تنطبق في الواقع مع جميع الفئات، بينما عربيا فإنها لا تحوز في الأصل على قيمة عند المجتمع حتى بين المتعلمين، وإذا أراد أستاذ الفلسفة العيش وسط المجتمع دون مشكلات اجتماعية فإنه يجب أن يتخلى عن أفكاره ويندمج مع أفكار الدهماء.

كلمات مفتاحية: فلسفة، تعليم، مقارنة، أفلام، أستاذ.

Abstract:

This article discusses the manifestations of philosophy and its professors in cinema and the ways in which films treat this discipline and its practitioners, especially given that philosophy is a very complex discipline, and one of the most elitist disciplines, while cinema was and still is a mass art par excellence. The article chose two films starring a philosophy professor, the first being a French film. Titled "Not His Kind" pas son genre (2014) directed by Lucas Belvaux and the other is the Egyptian film "The Egg and the Stone" (1990) directed by Ali Abdel-Khalek. He cannot live with his utopian and elitist ideas without having him and his life exposed to many problems due to the alienation of his ideas from society (whether Western or Arab) and that philosophy, despite its great value to Western society, cannot be applied in reality to all groups, while in an Arab it does not possess Originally, it is of value to society, even among the educated, and if a professor of philosophy wants to live in society without social problems, he must abandon his ideas and merge with the ideas of demagogues.

Keywords: philosophy; education; comparison; films; professor.

مقدمـة:

لم تتخلص الفلسفة ولا المشتغلون بها من وصمة التعميمات المجتمعية حول صعوبتها وغرابة مصطلحاتها وتطرّف أساتذتها فكريا وتباين حياتهم عن حياة المتجمع الذي يعيشون فيه بل لم يتخلص أساتذتها من تهم جاهزة مثل الإلحاد والوقوف ضد الأديان التي تؤمن بها الغالبية أو الوقوف ضد منظومة الحكم أو التعدي على ركائز الدولة والعديد من العبارات الفضفاضة التي لا تشي إلاّ بترهّل في الأفكار وبساطة تصل إلى حد السذاجة في استعداء الفلسفة والعقل والتشبث بالتقليد وتغييب التفكير، إنّ الفلسفة عند الكثير من مفكريها يتم تمثيلها بـ "بناء فخم مهيب، فلقد ارتقى بيت الفلاسفة عبر 2500 عام إلى مكانة لا يمكن تجاهلها، لكن الكثيرين يخجلون من الدخول في هذا البيت، فالمداخل غير واضحة المعالم، كما أنها تبدو شديدة الصعوبة" (تسيمر، 2011) والمشتغلون بالفلسفة من أساتذة هم أول الناس إدراكا لهذه الفجوة الكبيرة بين عالم الأفكار الذي يعيشون فيه وبين واقع مجتمعاتهم والمستويات الفكرية وتغلغل التقاليد والرجعية والمفاهيم الميتافيزيقية في حياتهم بشكل يمنع كثيرا تغيير هذه الذهنيات وتبديل مرجعياتها أو على الأقل نزع الوهم والهالة عنها، هو مأزق يعبّر عنه نيتشه في هكذا تكلم زرادشت "لم تنقل كلمتي الجبال بعد، فإنّ ما قُلته لم يبلغ حتى آذان الناس، لقد أتيت إلى العالم غير أنني لم أتصل به بعد" (نيتشه، 2018) هذا محليا وإقليميا، غير أنّ وضعية الفلسفة في الدول المتقدمة لا يمكن أن تكون إلاّ من تقدم الدول ذاتها والخطوات الكبيرة التي قطعتها هذه المجتمعات في سبيل الحريات العامة وتقاليد رصينة في إتاحة المجال للفلسفة والأفكار المختلفة في أن يكون لها مكان تحت الشمس، ذلك أنّ الفلسفة أيضا ابنة الأرض والمجتمع، وكلما ازدهرت منظومة التفكير والحريات إلاّ وازدهرت الفلسفة أيضا.

والسينما بوصفها واحدة من أرقى الفنون وأجملها وأكثرها اتصالا بالجماهير على اختلاف طبقاتهم وتنوع مرجعياتهم الحياتية والفكرية انتبهت –كما فعلت مع كل الأفكار وأهمهما– إلى الفلسفة والمشتغلين بها وكتبت عنهم في سيناريوهاتها وعرضت نماذجهم على شاشاتها، ليس بالكثرة ولا بالنماذج الكثيرة ولكن أيضا دون إغفال تام لها، فاتصل جمال الفلسفة بجمال السينما ورآه الناس ماثلا أمامهم، أو على الأقل رأته أعداد كبيرة منهم فـ"الجمال ليس صفة محايثة للأشياء نفسها وإنما هو موجود في ذهن الإنسان الذي يتأمله، لذلك فإنه من الطبيعي أن يدرك كل إنسان جمالا مغايرا لما يدركه غيره من الناس، قد يدرك شخص القبح في شيء ما في الوقت الذي يدرك فيه شخص آخر الجمال في هذا الشيء" (فيري، 2020)

ويمكن اعتبار فيلم "ليس نوعه" **pas son genre** واحدا من الأفلام الهامة التي جعلت من أستاذ الفلسفة بطلا لها وحاولت إيضاح الانفصام الكبير بين تفكير الرجل وبين واقعه، أو بين أهدافه وطموحاته وبين أغلال المجتمع.

كما يمكن اعتبار فيلم "البيضة والحجر" في السياق ذاته (وهو أسبق من الأول تاريخيا) من أبرز الأفلام المصرية التي ناقشت الانفصام ذاته، ليس فقط بين أستاذ فلسفة تحديدا ومجتمعه، بل أيضا بين كل تفكير جديد وتنوير حقيقي في مقابل إشاعة الأفكار القاتمة القادمة من عصور الجهل والتخلف.

وتفترض المقالة أنّ أستاذ الفلسفة في كلا الفيلمين يحارب بضراوة في سبيل أن يقدم أفكاره للمجتمع وأن يمارس حياة متوافقة مع انتماءاته الفكرية وإيديولوجيته المعرفية دون انفصال أو افصام، لكن المشكلة الكبرى في تصدي المجتمع لكل تجديد أو تغيير في هذه الأفكار الصدئة التي عششت في ذهنه.

ومن هنا فإنّ هذه الدراسة التي تنتهج المنهج التحليلي النقدي مشفوعا بالمنهج المقارن تحاول الاقتراب من صورة أستاذ الفلسفة في كلا الفيلمين فكرا وممارسة من وجهة الأفكار والمعاني وعلاقتها بتقبل المجتمع أو عدم تقبلها، إضافة إلى قدرة هذا المشتغل بالفلسفة على الإصرار على طريقته في التفكير أو تغييرها، وهل يمكن لأستاذ الفلسفة التعبير عن أفكار بحرية في هذا المجتمع أم أنه في الأخير يضطر للسير في التيار ذاته الذي يسير فيه الغالبية.

1. بين "ليس نوعه" و"البيضة والحجر": من إيحاء العنوان إلى ثراء المعنى

1.1 فيلم "ليس نوعه": أستاذ الفلسفة منسجما مع أفكاره

اقتبس المخرج لوكاس بالفو **Lucas Belvaux** سيناريو فيلم "ليس نوعه" من رواية بالعنوان نفسه للروائي الفرنسي فيليب فيلان **Philippe Vilain** الصادرة عام 2011 وأخرجه عام 2014، وهو يصور الفيلم شخصية كليمان (لويك كوربيري **Loïc Corbery**) أستاذ الفلسفة الشاب الذي تم تعيينه في مدينة أراس لمدة عام، وهي المدينة البعيدة عن مدينته باريس وأضوائها والتي يرفض بدءا أن ينتقل إليها لكنه يذهب إليها مضطرا، لا يعرف كليمان ماذا يفعل بوقت فراغه والمكان الغريب والصغير الذي يختلف جذريا عما عاشه في مدينته الكبيرة وعندها يلتقي بجنيفر (إميلي ديكين **Émilie Dequenne**) مصففة الشعر الجميلة والتي تجمعها علاقة عاطفية، وإذا كانت حياة كليمان يحكمها كانط أو بروست والفلاسفة والمؤلفين الكبار وشديدي الصعوبة فإن جينيفر تمارس إلى جانب مهنتها كمصففة شعر تربية ابنها وتمضي أوقات فراغها في قراءة الروايات الشعبية والمجلات المتخصصة في أخبار النجوم أو مع صديقاتها في الغناء.

الفيلم إذن رومانسي اجتماعي يناقش الحواجز الثقافية والفكرية بين أستاذ فلسفة وبين فتاة شعبية تعيش الحياة بكل يومياتها وتفاصيلها البسيطة والحية، والفيلم السينمائي في العادة يُعرف بأنه "فن هجين مثل الأوبرا، فالأوبرا تعتمد على فنون أخرى: المسرح، التصوير، الموسيقى، وتعتمد الأوبرا على الرقص والبانتوميم ويمكن أن

يعتمد الفيلم على كل هذه الفنون وهو قد نما أيضا من داخل فن آخر: التصوير. وغالبا ما نسمّي الفيلم بالفن التعاوني بمعنى أنه يتطلب مواهب كثيرة من المتخصصين الذين يتم التنويه بأسمائهم جميعا في عناوين النهاية وهو أيضا أحد الفنون الذي نتوقع فيه أن يقوم شخص واحد وهو المخرج بتكامل المساهمات كلها في كلٍّ واحد" (ف.ديك، 2015)، فإذا كان الفيلم يوصف بهذا الوصف فإنّ فيلم "ليس نوعه" أيضا لا يخرج عن هذا التوصيف،

ليس في الفيلم صراع حاد يجعل المتلقي يقف مع طرف ضد آخر بالقوة والشدة التي يمكن أن تُرى في الكثير من الأفلام، لكن الصراع في الفيلم يبدأ نفسيا واجتماعيا خافتا لكنه مؤثر. أولهما إبعاد أستاذ الفلسفة (بل الفيلسوف كما يعرّف نفسه في الفيلم) من منطقة الإشعاع الفكري والثقافي باريس إلى منطقة نائية لا حياة فيها بسبب أنّ منصبه أخذه أستاذ أقدم منه ومتزوج بينما هو أحدث خبرةً وأعزب، والوقت الكبير الذي يشعر فيه بالملل حتى أنه يجلس لوقت طويل أمام حاسوبه فلا يفعل شيئا سوى اللعب على عنوان مؤلّفه. **(Belvaux, 2014)** إنه بتعبير آخر اغتراب روحي، فهو ليس مجرد مُلقٍ لدروس يتم تلقينها هي ذاتها في أي مكان، فلا مشكلة إن قدمها في باريس أو في آراس البعيدة، كما أنه ليس كائنا ذا بعد واحد، إنّه "إنسان" بكل دلالات اللفظة ومعانيها، وهو فوق إنسانيته فيلسوف، والفيلسوف لا يمكن أن يقصر "الفلسفة على تحليل لساني لما قيل عن موضوعات محددة بل أكثر من ذلك: إنّ الفلسفة لا تتعلق بما هو مَقول أو ما هو معروف فحسب، وذلك لأنّ الكلام لا يدور فقط حول ما نعرف وإنما كذلك حول ما لا نعرف" (المسكيني، 2013) إنها أبعاد قد لا يفهمها إلا هو، أو من كان في مكانه ووضعه وفهمه، ولذلك تتحوّل وضعيته في ذاتها إلى موضوع للتفكير، فالإبعاد القسري عن مدينته بدعوى اللوائح التنظيمية للمهنة جعله يزداد إيمانا بأنّ "الفلسفة نفسها هي في سرّها إيمان إدراكي اهتدى إلى طريقة فذة لطرح أسئلة مناسبة عن وعلى نفسه، وبعبارة واحدة: الفلسفة في صميمها سؤال موجّه لما لا يتكلم فينا، ذلك المزيج المتكوّن من العالم ومنّا والذي يسبق التفكر" (المسكيني، 2013)

وإذا كان هذا أول صدام مع الرغبة والطموح في مقابل تلك اللوائح فإنّ أستاذ الفلسفة في "ليس نوعه" يرغب إيجاد خطط بديلة لملء وقت الفراغ الرهيب في آراس التي تقول عنها زميلته أستاذة الفلسفة هيلين (آن كوسينس **Anne Coesens**) : "نحن لا نعيش في آراس، نحن نموت فيها" **(Belvaux, 2014)** ولذلك يحاول بناء علاقة مع مصففة الشعر التي يلتقيها أول مرة في صالون حلاقة ويذهب إليها في اليوم الموالي مباشرة في وقت غلق المحل. إنه الملل هو ما يجعله يحاول بناء هذه العلاقة، فهو لا يعرف أحدا في المدينة الصغيرة الهادئة إلا من بعض السكارى غريبي الأطوار ليلا في الشارع والذين يقضّون مضجعه ويزيدون غربته عن هذا المكان.

عنوان الشكل 1: اللقاء الأول بين أستاذ الفلسفة ومصففة الشعر

المصدر: فيلم pas son genre

لكن العلاقة لم تكن جسدية فقط كما أرادها أستاذ الفلسفة، إذ أنّ مصففة الشعر أحبته، وأرادت منه أكثر من هذه اللقاءات الجسدية، إنه عدميّ بامتياز، والعدمية بتعريفها البسيط رفض كل أشكال الحقيقة والأخلاق العامة أو القيم أو المعنى، أو هي انقلاب عن القيم، وإيمان بالحظة الراهنة في بعدها المادي كمحاولة للصراخ في وجه العالم الذي رماه في هذا المكان، أو هو "محاولة لتدجين الألم وتحويله إلى متعة عدمية تحت التصرف" (المسكيني، 2013) وقد كانت المرأة بالفعل تحت تصرفه في الكثير من المناسبات إلى أن فاض الكيل، فأستاذ الفلسفة رأى فيها كائنا جميلا للمتعة، لذلك لم يحدثها عن كتبه ولا عن أنه فيلسوف، إنه مجرد أستاذ تم تهجيره إلى هذه المدينة، ربما يمكن يهديها كتابا من الأدب الروسي، كما تحدثه عن أفلامها التي تحب وممثلاتها المفضلات اللواتي لا يقعن ضمن دائرة اهتمامه مطلقا، لكنه أبدا لا يحدثها عن مشاريعه الفكرية، لأنها مصففة

شعر، حتى عندما يهديها "نقد ملكة الحكم" لكانط فإنه يدرك مسبقا أنه من الصعب أن تقرأه أو أن تفهمه (**Belvaux**، 2014)، إنهما عالمان مختلفان يجب أن يبقى المشترك الإنساني بينهما هو العلاقة الحميمية وحدها، وهذا هو الصراع الذي أحست به هي. فقد كانت تطالب أن تكون بأبعادها المتعددة لا ببعدها المادي (الجسدي) وحده.

يصوّر لنا الفيلم صراع أستاذ الفلسفة مع المجتمع في علاقته مع مصففة الشعر لكنه أيضا يعيدنا إلى باريس في علاقة سابقة مع امرأة أخرى، تسأله إن كان لا يزال جبانا ويرد عليها بأنه لم يكن يوما جبانا. تبتسم ساخرة، فيقول لأنه أعلمها مسبقا أنه يرفض الزواج وأنه يؤمن بالعلاقات المفتوحة (**Belvaux**، 2014)

إنّ الفيلم برمته محاورة فكرية حول مفاهيم الحرية وعلاقة الذات بالآخرين، فالنساء اللواتي عرفهن أستاذ الفلسفة يعتبرن أن الحب والزواج ليسا منعا للحرية لكنّه يرى في أي ارتباط قيدا يوقف جناحيه عن التحليق في عوالمه الخاصة بإرادته الكاملة، وهذا هو مأزق أستاذ الفلسفة بين إرادة يعتبرها خيّرة في العيش بالطريقة المناسبة له في المكان الذي يرتضيه عقله وإمكاناته، وبين إرادة الآخرين، وعندما تتعارض الإرادتان فإنّه يغلّب رغبته على رغبات غيره، من منطلق أنّ "الحياة نفسها تأويل (مجموعة فهوم على حسب الطاقة الفكرية والتوجه النفسي والميولات والاستعدادات)، نزاع غريزي مع المعنى واللا معنى، لكن الهدف واحد: أن تبرّر نفسها، أن تبرّر ما فيها من معاناة ومن هنا علينا في كل مرة أن نفرّق بين التأويل الصحي وبين التبرير الذي يقوم على عدم التمييز بين المعنى والمعاناة" (المسكيني، 2013) فليست المعاناة عند جينيفر فقط عندما لم يرغب أستاذ الفلسفة في تقديمها لزميلته وزوجها وإدراكها بأنها محشورة في زاوية ضيقة جدا من حياته (**Belvaux**، 2014) ولكن المعاناة عند أستاذ الفلسفة نفسه الذي وجد نفسه في علاقة لا يريدها أن تخرج عن إطارها المرسوم لها مسبقا وفي الوقت ذاته دون أن يسبب أيّ جرح للطرف الآخر.

ينتهي الفيلم بفاجعة الرحيل، ترحل جينيفر عن الجميع، تضع استقالتها من صالون الحلاقة وتدّعي أمام زميلاتها أنها ستسافر مع أستاذ الفلسفة في جولة إلى باريس لوقت طويل وتعمل هناك، بينما تخبره هو أنها ستسافر مع صديقاتها إلى جزيرة جربة التونسية، لكنها في الواقع تختفي عن الجميع بعدما تقضي مع كل من الطرفين آخر اللحظات الممتعة والمدهشة، دون إظهار للألم بكلمة، فهمت جينيفر أخيرا باستحالة "الانتماء المشترك إلى العالم" (المسكيني، 2013)، إنّ عالم أستاذ الفلسفة يختلف كثيرا وجذريا عن عالمها ولا يمكن البقاء أكثر ولا يمكن أن تعاني أكثر.

وهي نهاية تحمل بعض الإدانة المختفية على موقفه، فقد أعطته كل المحبة، ولم يعطها في المقابل إلا الألم، لكنه في الأخير لا يستطيع القول –أي الفيلم– أنه تراجع أو انقلب عن مبادئه، إنه ظلّ كما كان، وفيا

لالتزاماته الفكرية في الحرية والعيش كما يرغب، لكن هذا جعله يخسر، وهي الخسارة التي شعر بها في آخر الفيلم ومرة أخرى، وكما فعلت جينيفر، دون كلمة.

1.2 فيلم "البيضة والحجر": أستاذ الفلسفة خاضعا لسلطة المجتمع وإكراهاته

يمكن أن نؤكد مع العديد من النقاد و"نتذكر بأنّ الأفلام في حقيقتها تسلية جماهيرية كبيرة، لم تراوغ وثيقة قوانين الإنتاج في وظيفة الفيلم بكونه مبدئيا تسلية دون أي هدف للتعليم أو الدعاية، وبالفعل فإنّ الأفلام هي من أجل التعليم والدعاية ولكنها تقوم بذلك بشكل مسلّ" (ف.ديك، 2015)، ولذلك فإنّ فيلم "البيضة والحجر" الذي كتبه محمود أبو زيد وأخرجه علي عبد الخالق يمكن اختصاره في العبارة التي وردت على لسان البطل مسطاع الطعزي (أحمد زكي): "وَيْل للعالم لو انحرف المتعلمون وتبهيَص (تميّع) المثقفون" (الخالق، 1990)، وهي حكمة من جهة وجرس إنذار من جهة أخرى، أو هي "تحذير قد يصل إلى حد التهديد، موجه إلى مجتمعات وثقافات كوكب الأرض على اختلافها وتنوعها، وقد أبدع هذا الثنائي الفريد عدة أعمال سينمائية تعبر عن رسالتهما الفكرية والفنية القائمة على مفاهيم وأفكار فلسفية، وهو شيء نادر الوجود في مجال السينما المصرية" (سنة، 2020) والفيلم يعالج "القضية العمدة التي تمثل أزمة تسود في المجتمعات على وجه العموم وفي المجتمع المصري على وجه الخصوص، وتنطوي الأزمة على إشكالية وهى غياب التفكير العقلاني المنطقي الناقد الذي يعبر عن لب القدرة على التفلسف عن الجماهير المصرية من جهة، وغلبة– بل سيادة– التفكير الخرافي اللاعقلاني الذي يحرض على الدجل والشعوذة وتعاطيهما كالماء والهواء" (سنة، 2020)

تُظهر أحداث الفيلم مع البداية شخصية سباخ التيبى (محمود السباع) الدجال الذي استأجر غرفة بدون عقد فوق سطوح أحد العمارات الكبيرة في القاهرة وادعى قدرته على الفك والربط وقراءة الكف والفنجان وآمن به سكان السطوح وساعده البواب المسمى سباطة (صبري عبد المنعم) ومنادي السيارات كأودة (عبد الله مشرف) وجلبا له الزبائن وقام بفرض إتاوة على سكان العمارة الذين خافوا منه لكنه دخل السجن بتهمة الدجل (الخالق، 1990)

ويبيّن إدخال الدجال إلى السجن أنّ السلطة الواعية تفهم خطر مثل هذه الممارسة على المجتمع، لكن العقاب لم يكن بسبب الأفكار الخاطئة وإشاعتها بقدر ما كان بسبب الاحتيال المالي على الناس، كما يبيّن الفيلم منذ بدايته تفشي التفكير الخرافي عند الطبقات غير المتعلمة والفقيرة، فالسطوح مكان تزدهر فيه الخرافات والقصص الغيبية وحكايات الجن والسحر في الوقت ذاته الذي تظهر فيه الحالة الاجتماعية في غاية التواضع، ولذلك نجد الفيلم يستمر بعدها ويُظهر محافظة مساعدي الدجال على حجرته مغلقة لحين عودته، حتى يستمر عطاء سكان العمارة لهما وتغييب العقل أو تشجيع العقل المغيّب ولكن صاحب العمارة يقوم باستصدار أمرا من

النيابة بفتح الحجرة وساعدته الشرطة على تنفيذ الأمر ولكن بعض البهارات والمواد التي كان سكان السطوح يلقونها على الباب لمنع خروج الجان في ظنهم أصابت عيني صاحب البيت نبيل بالتهاب فى العين واعتبر سكان السطوح هذا الأمر من كرامات الدجال ورفض الجميع الإقامة في الحجرة مما دعا صاحبها لتكليف سمسار صديق بالبحث عن ساكن لها يقيم بها شهرين مجانا حتى يطمئن قلبه.

كل هذا فرش معرفيّ وفني يقدم فيها الفيلم الحالة السلبية المزرية التي يعاني منها سكان السطوح، وهم عينة من شريحة كبيرة في كل مكان من البلاد، وقد جاء هذا كمقدمة تسبق ظهور شخصية أستاذ الفلسفة مستطاع طه الطعزي (احمد زكى) الذي عُرف بأنه يحرض التلاميذ على الاستغناء عن الأشياء التي يرتفع ثمنها عن إمكانياتهم، والتحكم فى شهواتهم بالحد من الاستهلاك، وهى المبادئ التي أثرت على المستفيدين من شراء التلاميذ للوجبات الغالية وحضور الدروس الخصوصية، فيبدأ تآمر المستفيدين منه على أستاذ الفلسفة، وهو ما يحاول الفيلم بصريا أن يقوله دون مباشرة ولا خطابية منفّرة بأنّ "محبّي اللذات والشهوات الذين قد يزدرون الجمال الفلسفي **Beauté philosophique** قد يضطرون في غالب الأحيان إلى الاعتراف بسحر وروعة هذا الجمال، إنهم يعرفون حقا امتداح الفضيلة ويتأثرون كغيرهم من الناس بالجمال ويستحسنون –دون شك– الشيء في الوقت الذي لا يستحسنون فيه الوسائل، ويحبذون بكل تأكيد (إذا كان هذا ممكنا بطبيعة الحال) الاستقامة على الفجور، ولكن مع ذلك فإنّ قواعد التناغم تتعارض مع ذلك تماما، وهذا التنافر فيما يخص هذا أمر واقع لا محالة" (فيري، 2020)، أي أنّ الفاسدين بمعرفة أو بغير معرفة يمارسون فسادهم، وعندما يهدد أستاذ الفلسفة مصالحهم كمثقف عضوي يمارس مهمته التنويرية فإنهم يقفون مجتمعين ضده حفاظا على مكتسباتهم، فإذا كان أستاذ الفلسفة يتبع سياسة الاستغناء فيركب دراجة ليستغني عن المواصلات ويترك الشقة المفروشة التي يشارك فيها صديقه ويسكن غرفة السطوح المتنازع عليها، فإنه حر في هذا ما دام لم يضر أحدا، أما أن ينادي بهذا ويسوق له بين التلاميذ فيمتنعون عن استهلاك ما يباع لهم، ويتوقفون عن الدروس الخصوصية، ويتشجعون على عدم الإسراف فإنّ في هذا مخاطرة تنزل الكثير من المزايا عن الفاسدين، وبالتالي يجب ضرب أستاذ الفلسفة في رزقه بإشاعة الشائعات وترديد الأكاذيب (الخالق، 1990)

ويظهر ثاني صدام بين أستاذ الفلسفة وأصحاب المزايا والمستفيدين من الجهل وتغييب العقل عندما يحاول البواب ومنادي السيارات أن يرهبا أستاذ الفلسفة فيغادر السطوح دون رجعة ولكنه يتغلب عليهما ويهددها بسخطهم قردة (وهنا تتم معاملة الفاسد بمنطقه الفاسد ذاته دفاعا عن النفس)، وعندما جاءت الأم تسأل عن العم سباخ الدجال ليفك السحر عن ابنها عامل المقهى الذي لم يستطع الاقتراب من زوجته قاما بإرسالها إلى أستاذ الفلسفة فإذا قبل معاونتها سارا فى ركابه وإذا رفض فإن لا خوف منه ويضطر أستاذ الفلسفة تحت الإلحاح أن

يساعد الأم ليفك عقدة ابنها المتزوج حديثا متبعا بعض الأساليب السيكولوجية وتنجح طريقته مما يكون سببا في علو شأنه أمام سكان السطوح (الخالق، 1990)

عنوان الشكل 2: اللقاء الأول بين أستاذ الفلسفة وسكان السطوح الشعبيين

المصدر: فيلم البيضة والحجر

لم يتراجع أستاذ الفلسفة هنا عن أفكاره ولا عن إيمانه بقوة التفكير والعلم والثقافة في تغيير واقع الإنسان، ولذلك على الرغم من جهة الأم وابنها وزوجته إلاّ أنه استطاع بثقافته أن يحسن من حياة أسرة بأكملها، لكن دون أن يكون الفكر والفلسفة هما عنوان الطريقة المختارة، فقد ساعدهما حقيقة لكن الفكرةَ التي أُخذت عنه أنه معالج روحاني، أو دجال، إذ لا يمكن للجاهل أن يُخاطب بالعلم الصعب، ولا بالألفاظ النخبوية، فإن خاطب بها هؤلاء لم يفهموا ولم يستوعبوا، ولهذا فإنّ هذا النوع من المثقفين الحالمين بواقع أجمل وحياة أفضل وعند صدامهم مع هذه النوعية من التفكير فإنهم يحاولون "تحقيق نوع من الانسجام في سلوكهم وإذا وجدوا الأمر مستحيلا فيما يخص بعض الشروط المتعلقة بذلك فإنهم في هذه الحالة قد يضحون بالمتع والملذات الأخرى (لذة أن يُنظر له كأستاذ ومثقف لا كمعالج روحاني طارد للسحر) حتى يتحقق السلوك المنتظم والمعتدل (من مأكل ومشرب ومسكن) بحيث تكون كل الأجزاء متوافقة" (فيري، 2020)

إنّ الفيلم يحاول في كامل أجزائه توضيح البؤس المعرفي والفكري للطبقات الفقيرة والمحرومة وكيف يتصدى لها المثقف أو أستاذ الفلسفة كنموذج عنه، وإن كان يستطيع التصدي حقا أم يخيب رجاؤه وتنهار عزيمته، ومن ذلك أنّ جارته قمر (معالي زايد) التي تعمل غسالة على السطوح (والاسم له دلالة أيضا) تريد منه

المساعدة في فك السحر الذي تعتقد أنّ زوجة أبيها وضعته لها حتى لا تتزوج، وتخبره بثقة عجيبة أنّ زوجة الأب قامت بإخفاء السحر تحت ظفر نملة تسعى في الأرض وحينما طلب منها أن تظهر أنوثتها ورقتها كي يقبل عليها من يخطبها رفضت وطلبت منه البحث عن النملة، فاضطر أستاذ الفلسفة أن يجاريها في الدجل ولحسن حظها فإنّ مصريا مغتربا بأمريكا يقابها ويعجب بملايتها يعرض عليها الزواج ويصحبها إلى أمريكا (الخالق، 1990)

من أهم مشاهد الفيلم حوار بين أستاذ الفلسفة والغسّالة بعد أن يخبرها أنه يحضر رسالة دكتوراه في الفلسفة، تسأل الجارة متصورةً أن الفلسفة عضو من أعضاء الجسم يحتاج إلى طبيب لمعالجته عندما يعطل:"هي الفلسفة ده في أنهى مكان في الجتة؟ يعنى لما الواحد فلسفته توجعه، الوجع ييجي فين في الجتة؟"، ويجيبها أستاذ الفلسفة بكل حسم ووضوح: "ييجى فى الدماغ عدل" (الخالق، 1990) أي أنّ التفكير إذا أصابه العطب فإنّ العطب يصيب الدماغ والدماغ أهم جزء في الإنسان ولا قيمة له دونه.

يأتي فشل أستاذ الفلسفة الأساسي الأول في تمرير أفكاره والعيش في مواءمة معها عندما يتم طرده من العمل بعد أن ينجح خصماؤه في المدرسة من تلفيق تهمة الشيوعية له فيتم فصله، وو الفشل الذي يضطره للاستمرار في عملية الدجل الذي يرى أنه اللعب الذكي بآمال ورغبات الناس (الخالق، 1990)

إنّ المجتمع بترسانته المفاهيمية التقليدية من جهة ومن قوة وجبروت القوى الرجعية وأصحاب المصالح لا يمكن أن تترك للمثقف الظاهر في الفيلم في شخص أستاذ الفلسفة أن يقدم رؤاه وأفكاره ولذلك يقوم بتهديم كل ما يمكن تهديمه وتحويله إلى شخص عاجز غير قادر على الحصول على متطلباته اليومية وضرورياته المعيشية، وبالتالي يتحول مثلهم إلى مرتزق.

ولأن الدجال يصنع بالدعاية الذكية والإعلام الجيد، فقد استعان أستاذ الفلسفة الذي تحول إلى دجال بسباطه وكآوده لجلب الزبائن، وساعده ساكن السطوح الحلاق (فؤاد خليل) بالدعاية له بين زبائنه من النساء، وكان يمده بمعلومات عنهن، وآمن أستاذ الفلسفة أن الدجال يصنعه ثقته في نفسه وإيمان الناس بقدرته، فقام بالاستعانة بصديقه الذي كان يسكن معه في الشقة قبل سكنه في غرفة السطوح، فكشف المرأة التي تريد سرقة زوج صديقتها، وساعد الزوجة التي ضعف زوجها جنسيا، ولم يفلح معه علاج الأطباء وعمل حجابا للزوجة الخائنة التي وعدها عشيقها بالزواج، بعد أن تحصل على الطلاق من زوجها وحجاب آخر للزوجة التى يهينها زوجها، وساعد الزوجة التي أرادت الإنجاب، ولم ينس أن يحصل على نصيبه من المتعة مع أولائك الزوجات، وتحوّل إلى ثري لا يختلف مطلقا عن الدجال الذي حُبس بسبب أفعاله، حتى أنه هو ذاته تم سجنه بتهمة

الدجل، لكن مسؤولا رفيعا سرعان ما جعله يخرج منه ليقوم كل رجال وزارة الداخلية بالاعتذار له ليخرج معززا مكرما ليواصل دجله مستغلا حاجة الناس لكل ماهو وهما وخيالا، ليتغلبوا على مخاوفهم (الخالق، 1990)

في مشهد مهم آخر يجمع بين أستاذ الفلسفة وزميله، وهما يتنزهان في حديقة. يعلن المدرس لزميله عن قراره المصيري الآتي:

أستاذ الفلسفة: "أنا نويت ألعب بالبيضة والحجر".

الزميل: "يعنى حتدجّل؟".

أستاذ الفلسفة: "ومين مش بيدجّل؟".

الزميل: "بس الدجل ده له أصول أنت ما تعرفهاش".

أستاذ الفلسفة: "اللي خلاني أعرف قواعد المنطق الرياضي ومبادئ الميتافيزيقا قادر يعرفني على أصول الدجل".

الزميل: "يعنى حتشتغل بالشعوذة؟".

أستاذ الفلسفة: "اسمها (الشعبذة)، كما قال ابن خلدون في (المقدمة) يا جاهل".

ثم يُعرِّف أستاذ الفلسفة لفظ الشعبذة وممارسة الدجل بأنهما "اللعب الذكي على أحلام ورغبات الناس"

وهذا ما يعيد التأكيد على المعضلة التي يطرحها الفيلم ككل والمتعلقة بأستاذ الفلسفة كنموذج للمثقف التنويري الذي يجد نفسه واقفا لوحده ضد تيار كامل من التفكير التقليدي والقوى الرجعية وأصحاب السلطة والمال وهي معضلة يمكن تلخيصها في سؤال أساسي عمّن المسؤول عن تحول المثقف من دوره فى توعية عقل الجماهير إلى متلاعب ومستغل لوعيهم وفكرهم الخرافي ، بهدف التسلط عليهم وسرقة أموالهم؟

إذا كان المجتمع هو المسؤول عن تحول المثقف الملتزم إلى مشعبذ أو مهياص، ففى هذه الحالة يبرأ المثقف المتميّع ويصبح مجنياً عليه من المجتمع المتخلف المنحرف، أما إذا كان الوضع خلاف ذلك، أي تحميل المثقف المسؤولية كاملةً بغض النظر عن مدى تأثير المجتمع عليه، فإن الأمر يصبح أكثر تعقيداً وخطورة، حيث إنه يجعلنا نتساءل بكثير من التوجس والشك الناقد عن هوية المثقف بوجه عام، والمثقف المتميّع على وجه الخصوص (سنة، 2020)

1.3 الانتصار للهامش بين "ليس نوعه" و"البيضة والحجر":

يمارس الفيلمان بعض النقد على أستاذ الفلسفة، أهم هذه الانتقادات أن التفكير الفلسفي تفكير غير واقعي، أو على الأقل لا يتماس بشكل مباشر مع القضايا اليومية للإنسان العادي، إن أستاذ الفلسفة يتعالى بفكره عن المجتمع، ولذلك يغترب عنه، يظهر هذا في علاقة أستاذ الفلسفة بمصففة الشعر ويظهر في علاقة أستاذ الفلسفة

بتلاميذه عندما يحضرهم على الاستغناء عن الأكل الذي يباع لهم وتشجيعهم على الوقوف والصراخ بمجموعة عبارات احتجاجية.

يُظهر هذا التعالي عن فهم المتجمع وصعوبة (بل استحالة) التغيير الخسارة الفادحة التي يُمنى بها أستاذ الفلسفة، فإذا كان لسان حال الرجل في كلا الفيلمين يقول "إنّ رؤية العالم من حولي ورطة للعلاقة معه وليس أداة لمعرفته، فأنا لست مجرد جسد طبيعي أي مادة عضوية أو حيوانية بلا مشروع خاص بل أنا رؤية ترى" (المسكيني، 2013) فإنّ هذا المشروع ينقلب عليه بالخسارة، ويحوّل الفيلمان المركز وهو أستاذ الفلسفة إلى ضحية للهامش، أو على الأقل فإن المواجهة مع الهامش بترسانة فكرية متعالية لم تنجح مطلقا في كلا الحالتين.

في "ليس نوعه" يخسر أستاذ الفلسفة المرأة التي أمضى معها وقتا إنسانيا في غاية الجمال والروعة والبساطة، ترتفع قيمة الهامش (وهو هنا مصففة الشعر) ليتحول إلى مؤثر حاد في علاقة أستاذ الفلسفة بنفسه، إنّ الحزن الذي ارتسم على وجهه دليل الخسارة الفادحة التي عاشها برحيلها، ولا شعور بالخسارة إلاّ للأشياء الكبيرة ذات قيمة، لا خسارة للهامش والعابر والسطحي، مع أنها كانت في البدء هامشية وعابرة وسطحية. انقلبت العلاقة ومركز القوة منه إليها، من باريس إلى آراس، ومن كانط إلى روايات الميترو، من محاضرات الجامعة إلى صالون الحلاقة، ليقول الفيلم أنّ الهامش ليس دائما غير أصيل، ولكنه يبدع أصالته بطريقته الخاصة وجمالياته المتفردة.

وهذه القوة عند الهامش في الفيلم تظهر في الأغنية التي أدتها جينيفر قبل اختفائها في آخر الفيلم وهي في كامل زينتها للأمريكية غلوريا غاينور **Gloria Gaynor** (وهي أشهر أغانيها فعليا إلى جانب **Never Can Say Goodbye**): هل تعتقد أنني أستلقي وأموت؟ أوه لا ، ليس أنا ، سأبقى على قيد الحياة، طالما أنني أعرف كيف أحب، أعرف أنني سأبقى على قيد الحياة، لقد حصلت على حياتي من أجل العيش، ولديّ الحب الكبير لإعطائه، سأنجو (**Belvaux**، 2014)

وانسحاق أستاذ الفلسفة أمام الهامش ظهر أيضا في "البيضة والحجر" عندما تحول إلى دجال يلعب بآمال الناس وآلامهم، صحيح أنّ الفيلم برّر الانقلاب الراديكالي الذي حدث للشخصية من جهة الأسباب لكنه لم يبرر مطلقا أعمال الدجل أو النتائج، فهي تبقى أعمالا غير مقبولة تحت أي مسمى وظرف،. كما أنّ هذا الهامش (ألفاظ السحر والشعوذة واللعب على العقل) تغلغل في لغته وتفكيره العام ولم يبق من الفكر الذي قامت عليه مشكلاته الأولى وتسبب في قطع رزقه دفاعُه على المثاليات مع تلاميذه.

يجتمع الفيلمان على مقولة واحدة إذن، لا فلسفة بمتعالياتها، ولا قدرة لعيش أستاذ الفلسفة بترفعه الفكري في المجتمع بشعبويته وبساطته وسيولة الحياة فيه، لكن الفيلم الفرنسي لا يقول أننا يجب أن نتخلى عن فلسفتنا

في الحياة، لكن في المقابل يخبرنا، أو ينصحنا أن ننتبه أننا في طريقنا للحياة بالطريقة التي نرغب بها سنخسر الكثير من الأشياء النبيلة والجميلة التي تصادفنا.

بينما "البيضة والحجر" يخبرنا أنّه إذا أراد أن يعيش كما ينبغي أن يعيش أي مواطن (أكلا وملبسا ومعيشة) أي في الحدود الدنيا للمواطنة البسيطة (التي يشترك فيها مع الكائنات الأخرى على قدم المساواة) يتوجب عليه أن يتخلى عن كل الممكنات الفكرية التي تعلمها أو اعتنقها، وتتحول الدكتوراه في الفلسفة التي قضى سنوات طويلة في دراستها إلى عبء حقيقي عليه لا يمكن أن تستقيم حياته إلاّ بالتخلي عنه.

عنوان الشكل 3: بوستر فيلم pas son genre

المصدر: https://www.imdb.com/title/tt3489470/

عنوان الشكل 4: بوستر فيلم البيضة والحجر

المصدر: https://elcinema.com/work/1011702/

خاتمة:

يمكن إجمال الحديث عن صورة أستاذ الفلسفة في السينما من خلال الفيلمين الفرنسي والمصري في مجموعة من النقاط الأساسية التي يشترك فيها الفيلمان والتي يختلفان فيها.

وهما يشتركان في النظرة إلى أستاذ الفلسفة بأنه صاحب فكر وقيمة وله شخصيته المستقلة التي تجعله من أصحاب الفضل والاحترام، وهي هالة تتأتى له من صعوبة التخصص من جهة ومن المسار الطويل في الدراسة من جهة أخرى.

كما يشترك الفيلمان في تقديم أستاذ الفلسفة بأنه مختلف عن واقعه لا يرضى به، أو غير قادر على الرضا به، وهو متطلّب ويمكن أن يعيش أزمة نفسية ووجودية بسبب تغيير مكان عمله ومجال عيشه.

والفيلمان يؤكدان أنّ المجتمعات تعيش تخلفا فكريا، أو على الأقل لا ترتقي إلى المستويات الفكرية التي يصل إليها أستاذ الفلسفة كشخصية واعية ومدركة بالوقائع والتاريخ والذهنيات وعالم الأفكار وتحتاج إلى وقت طويل لتتغير.

ليس من السهل أن يتقبل المجتمع العادي أطروحات وآراء أستاذ الفلسفة، ومن الصعب أن يقدر على التغيير، وهو تأكيد على صعوبة تطوير ذهنيات المجتمع وتغيير تقاليده ومرتكزاته النفسية والاجتماعية التي تربى عليها منذ قرون.

الفيلمان يختلفان في عدة نقاط من أهمها أنّ أستاذ الفلسفة في الفيلم الفرنسي لم يغيّر قناعاته ولا آراءه وبقي يعيش بها في باريس وفي المدينة الصغيرة التي فُرض عليه الانتقال إليها، أما في الفيلم المصري فقد أجبرته الوقائع على تغيير قناعاته، تبعا لقوة المجتمع وسطوة الظروف، فالظروف التي فُرضت على الأول في الفيلم الفرنسي ليست بالقوة ذاتها ولا القسوة نفسها التي فُرضت على الآخر في الفيلم المصري.

2. الإحالات وقائمة المراجع:

الأفلام:

1. pas son genre,réaliser par Lucas Belvaux (2014) :
https://www.imdb.com/title/tt3489470/
2. البيضة والحجر، المخرج علي عبد الخالق، (1990):
/https://elcinema.com/work/1011702

- **المؤلفات:**

1. المسكيني، فتحي، (2013)، الكوجيطو المجروح: أسئلة الهوية في الفلسفة المعاصرة، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، بيروت–الجزائر.
2. تسيمر، روبرت، (2011)، في صحبة الفلاسفة، دار الحكمة، لندن.
3. ف.ديك، برنارد، (2015)، تشريح الفيلم، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
4. فيري، لوك، (2020)، مولد الإستطيقا ومسألة معايير الجميل، دار التنوير، الجزائر.
5. نيتشه، (2018)، هكذا تكلم زرادشت، دار خطاب للنشر والتوزيع، القاهرة.

- **المقالات:**

1. أبو سنة، منى، (2020)، ويل للعالم إذا انحرف المتعلمون وتهيص المثقفون، المصري اليوم، العدد 2351، ص 23.